كانت سنة التدافع حاضرة في ثورات الربيع العربي: تدافع العدل والظلم، تدافع الحق والباطل، تدافع الفساد والإصلاح، ما أفضى ذلك إلى التغيير

{إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد:١١]. إذا غيّر الناس ما بأنفسهم تغيّر مجتمعهم وتغيّرت سياستهم وتغيّرت علاقاتهم وتغيّرت ارتباطاتهم؛ لأن القاعدة في التغيير هي تغيير ما بالأنفس.

السنّة الثانية التي شهدتها هذه الثورات وهذا الربيع العربي: سُنّة التدافع: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة:٢٥١]. وقد كان هذا التدافع حاضراً في هذه الثورات: تدافع العدل والظلم والطغيان، تدافع الحق والباطل، تدافع الفساد والإصلاح.. هذا التدافع أفضى إلى هذا التغيير الذي نراه اليوم {وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم:٤٧].

السنّة الثالثة: سُنّة التداول، وكانت حاضرة في هذه الثورات: {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ واللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران:١٤٠]. إنها المداولة الحضارية والتداول الحضاري.

وهذه الدولة اليوم للإسلام، دولة للحق، دولة للحرية... هذا قانون وسُنّة ثابتة، وعلى الطغاة الذين ما زالوا يمارسون طغيانهم وظلمهم واستبدادهم أن يعلموا بأن سنن الله في التاريخ وسنن الله في الكون لن ترحمهم بل ستجرفهم وتذهب بظلمهم وطغيانهم، أحبّوا أم كرهوا.

الفرقان: ما موقع سُنّة الله في النصر في الثورات الأخيرة؟

د.الغلبزوري: الثقة بالله وبنصره، هذه العقيدة كانت خامدة، لكن مع هذه الحركيّة وهذا التغيير عاد الناس إلى الله وآبوا إلى ربهم سبحانه، وعلموا أنهم لا ينبغي أن يتوكلوا على أحد غير الله تعالى، فهو ناصرهم، ولا ضارّ ولا نافع ولا محيي ولا مميت إلا الله تعالى. إنها عودة صحيحة إلى الأخذ بالأسباب بعد التوكل على الله تعالى كما فعل النبي ﷺ في هجرته وأخذه بسنن الأسباب والحيطة والحذر بعد الثقة الكاملة بنصر الله، فنزل قوله سبحانه وتعالى بعد ذلك: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة:٤٠]. أصبح الناس اليوم يثقون بالنصر؛ فالله وعد المؤمنين بالنصر والاستخلاف في الأرض، فالفجر يتفجّر الآن -بفضل هذه الثورات- من بين الظلام الحالك، والنصر عند اشتداد حلكة الظلام:

اشتدّي أزمة تنفرجي ... قد آذن صبحك بالبلج

فكلما اشتدّ السواد والظلمة على الأمة واشتدّ عليها الخناق، يُظهر الله تعالى -بناءً على سُننه في الكون- أموراً لم تكن متوقعة كما وقع في هذه الثورات التي أظهرت تغييراً سلمياً في مجموعة من الدول: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ} [البقرة:٢١٤]؛ ففي الوقت الذي تظنّ الأمة أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، وأنه قد انسدّت كل الطرق والأبواب... عند ذلك يأتي النصر من حيث لم تتوقّع، وهذا الذي وقع للأمة اليوم، لم تكن تتوقّع ما ستسفر عنه هذه الثورات المباركات، لكن الله تعالى يأتي بالفجر بعد شدة الليل المظلم.

الفرقان: ما رَدُّك على أولئك الذين فقدوا الأمل في هذه الأمة المسلمة، وهل ما نراه اليوم عقب هذه الثورات يمهّد لسنّة الله في التمكين لهذه الأمة؟

د.الغلبزوري: لقد آن لدولة الإسلام الحضارية أن تُستأنف، إنّ هذه الأمة لن تموت أبداً، وهذا القرن (٢١) قرن الإسلام والصحوة الإسلامية.. قد تضعف الأمة.. قد تستكين، لكن لن تموت، والتاريخ شاهد على هذا، والله تعالى يؤيد هذه الأمة بأبطال يرفعون رايتها في ربوعها، والنبي ﷺ وعده الله تبارك وتعالى أن لن يستأصل هذه الأمة، ولن يستأصل شأفتها، وستبقى حاضرة، وما الثورات التي نشهدها اليوم إلا دليل على ذلك.. «لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحق لا يَضُرُّهُمْ مَن خالفهم». (متفق عليه).

هناك مُبشِّرات كثيرة تتوقع لهذه الأمة؛ فالله تبارك وتعالى وعد هذه الأمة بالنصر وبهيمنة هذا الدين على جميع الأديان: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة:٣٣]، والله وعد بالنصر: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد:٧]، {وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور:٥٥].

والأحاديث النبوية المبشِّرة بغد الإسلام كثيرة، منها:

قال النبي ﷺ: «لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمر ما بَلَغَ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أَدْخَلَهُ الله هذا الدِّين بعزِّ عزيز أو بذُلِّ ذليل عزّاً يُعزُّ الله به الإسلام وذُلاًّ يُذِلُّ الله به الكفر». (رواه الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح).

وقال النبي ﷺ: «إنّ الله زَوَى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإنّ أُمّتي سيبلغ مُلكها ما زُوِيَ لي منها». (صحيح مسلم)، فالنبي ﷺ يتحدّث عن دعوة القرآن بأنها ستصل إلى العالمين: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:١٠٧].

كل هذا يمهّد للتمكين لدين الإسلام ودعوة القرآن وأمة الإسلام وفق السنّة الإلهية.

الربيع العربي من منظور السُّنن الإلهية

في حوار مع أستاذ التعليم العالي بجامعة القرويين وعضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

الدكتور توفيق الغلبزوري

لا سبيل إلى النهوض واستئناف الدورة الحضارية للأمة الإسلامية إلا بفهم سنن الله وحسن التعامل معها

حاوره: د. رشيد كهوس

إن معرفة السنن الإلهية مناراً هادياً لتسخير الكون بكل ما فيه، من أجل فهم أشمل وأكمل للحياة، وامتلاك السبل الموصلة إلى استشراف مستقبل زاهر من خلال تلك السنن الثابتة المطردة الربانية التي تبعث الطمأنينة والوضوح في نفوس المسلمين.

وللوقوف على ذلك، كان هذا الحوار الشيّق والماتع مع الأستاذ الدكتور توفيق بن أحمد الغلبزوري حول علم السنن الإلهية، لنلفت الأنظار إلى أهمية فقه السُّنن الإلهية، وزيادة الوعي به، والتأكيد على أنه لا سبيل إلى التخلُّص من الفوضى الفكرية والعلمية إلا بالالتزام بدين الله عز وجل وشريعته، وإدراك سنن الله تعالى في الكون والمجتمع والإنسان؛ تمهيداً لتسخيرها، والعمل بمقتضاها حتى يعود المسلمون من جديد خير أمة أُخرجت للناس.

الفرقان: لو تفضّلت فضيلة الدكتور بالحديث عن أهمية علم السنن الإلهية؟

د.الغلبزوري: بداية، أشكر طاقم مجلة الفرقان على هذه الاستضافة المباركة، وأسأل الله تعالى أن يبارك جهودها، وأن يجعلها شجرة طيبة أصلها في الأردن وفروعها وثمارها في كل البلاد العربية والإسلامية.

أما عن أهمية علم السنن الإلهية؛ فإن الله تعالى أقام نظام الكون، ونظام المجتمع، على سنن وقوانين ونواميس مطّردة، لها صفة العموم والشمول، والثبات والدوام، والاطراد والاستمرار، فهي لا تتغير ولا تتبدل، ولا تختلف ولا تتخلّف، ولا تُحابي أحداً، بل الكل في ميزانها سواء.

وهذه السنن الإلهية؛ تفسّر إلى حدٍّ كبير حركة الحضارة والاجتماع والعمران البشري، وترتكز على الفقه الاجتماعي والحضاري، هذا الفقه الذي يقوم على دراسة سنن قيام الأمم والدول والمجتمعات والحضارات وسقوطها، وتخلّفها ونهوضها، وقوّتها وضعفها، ورقيّها وانحطاطها، ونجاحها وإخفاقها، والتي لا تتخلّف نتائجها عن مقدماتها، ولا تنفكّ أسبابها عن مُسبِّباتها، وعدم إدراكها تجعل الإنسان مسخَّراً؛ بدل أن يكون مسخِّراً لها.

وواقع المسلمين في العصر الحديث من التخلّف الحضاري، والتدهور الاجتماعي إنما يُعزى إلى جهلهم بالسنن في الآفاق وفي المجتمع، ولا سبيل إلى التقدّم والرقيّ والنهوض واستئناف الدورة الحضارية إلا بفهمها وفقهها، وحسن التعامل معها، وإتقان تسخيرها واستثمارها، واستشراف مستقبلها.

ولذلك، فإن حاجة المسلمين اليوم إلى ذلك شديدة؛ حتى يستعيدوا فاعليّتهم وقدرتهم على التغيير والإصلاح والبناء، وبذلك تنتفي العشوائية من حركتهم، والفوضى الفكرية من عقولهم، والإرجائية والجبريّة من مواقفهم، وذلك لن يكون بطبيعة الحال إلا بالقضاء على التفسير (الخرافي) للوقائع الاجتماعية، ولحركة الحضارة البشرية، ورفع أسباب الخمود والهمود، والركود والجمود، التي عطّلت العقول عن إدراك سنن الله ونواميسه في الكون والمجتمع، والتي أخرجت الأمة المسلمة من تدافع عالم المادة والشهادة والحركة إلى حال من السلب والتواكل، وشاعت فيها عقيدة الجبر والإرجاء التي انحرفت بركن القضاء والقدر إلى تعطيل قانون السببية تعطيلاً كاملاً. ولكي يكون المسلم فاعلاً مؤثراً لا بد أن يكتشف هذه السنن والقوانين، ويحسن تسخيرها واستثمارها، ويدرك كيفية التعامل معها، فيصل إلى منزلة مغالبة القدر بقدر أحب إلى الله، أو يفرّ من قَدَر الله إلى قَدَر الله كما قال الفاروق ﷺ.

الفرقان: ما الفرق بين مفهوم السنن الكونية وبين مفهوم السنن الاجتماعية؟

د.الغلبزوري: هناك فرق دقيق بين المفهومين؛ فالسنن الكونية: هي التي تتعلق بالأشياء والظواهر والأحداث المادية والطبيعة غالباً. أما السنن الاجتماعية: فهي تلك السنن التي تتعلق بسلوك البشر وأفعالهم ومعتقداتهم وسيرتهم في الدنيا، وفق أحوال الاجتماع والعمران البشري، وما يترتب على ذلك من نتائج في العاجل والآجل.

الفرقان: كيف تقرأ الأحداث الأخيرة أو ما يسمى بـ(الربيع العربي) من منظور السنن الإلهية؟

د.الغلبزوري: يقول الله تبارك وتعالى: {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ . هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران:١٣٧-١٣٨]. ومن هذه السنن التي يمكن أن نستحضرها ونحن بصدد هذه الثورات المباركات وهذا الربيع العربي سُنّة التغيير؛ فإن الله تعالى أسّس قاعدة جامعة مانعة للتغيير في قوله تعالى: